الكتب والعمال

لو سئلت جماعة من فضلائنا عما كان لهُ التأثير الاعظم في تهذيب اخلاقهم وترقية آدابهم لاجاب واحد منها عشرة قرين صادق وآخر موت خل وفيّ وآخر نجاح رفيق امين. فان عشراء الانسان يؤثرون فيهِ اعظم تأثير فتمدى اخلاقهُ من اخلاقهم ان خيرًا فخير وان شرًّا فشر. ولا نظنُّ ان احدًا من تلك الجماعة ينسب الفضل في ما هو عليهِ من الادب الرائع الى قراءة هذا المؤلف او ذاك من كتبنا العربية ناهيك عما فيها مما يفسد الاخلاق ويضلل الافهام كما نرى في الكشكول وكتب طبائع الحيوان وما اشبه

اما كتب الغربيين فليست كذلك بل ان ما كان منها علميًّا فبناؤهُ على قاعدة مضبوطة وما كان تاريخيًّا فعلى صحة وما كان ادبيًّا فرقيّ للآداب مثقف للنفوس مهذب للاخلاق. ولا يشذُّ عن ذلك الاكتب الروايات الحديثة باللغة الفرنسويَّة فان بعضها لا يخلو مما تضرُّ قراءتهُ. ثم ان ما كان من الكتب بذيئًا عندهم واروهُ عن ناشئتهم ما استطاعوا ولم يشينوا بهِ صدور مكاتبهم كما يفعل كثيرون عندنا. واذا اضطرَّ كتَّابهم الفضلاء الى الاستشهاد بعبارة يحسبونها ثقيلة على اسماع الذين قد يطلعون عليها من الاحداث افرغوها في قالب لاتيني لكي لا يفهمها الاَّ العارف باللغة اللاتينية ولا يكون الاَّ من متخرجي المدارس العليا. اخبرنا بعضهم انهُ انتُدب لتدريس عالم اميركيّ الامثال العربية وترجمتها لهُ الى الانكليزية لا فرق في ذلك بين المليح والقبيح منها فكان اذا اراد العالم كتابة المثل القبيح كتبهُ بكلام لاتيني فسألهُ مخبرنا في ذلك فأجاب "لعلَّ احدًا من اهل بيتي يعثر على هذه الكتابة وفيها ما فيها من البذاءة فلا يفهمها. وهكذا نفعل في ما نكتبهُ في الجرائد والمجلات والكتب من هذا القبيل"

فالقوم يعتقدون بتأثير الكتب في الاخلاق فيتعشقون الجليل منها ويرفعون قدر كاتبهِ ويجلُّون مقامهُ ويبجلون اسمهُ. ويفعلون عكس ذلك بالكتب السافلة وباصحابها. ولما كان هذا الاعتقاد جاريًا في نفوسهم مجرى الدم في العروق فلا عجب اذا رأينا كاتبًا كبيرًا مثل المستر ستد صاحب مجلة المجلات يصدر العدد الاخير من مجلتهِ وفيهِ مقالة طويلة عنوانها "حزب العمال (الانكليزي) والكتب التي ساعدت على تكوينهِ" وعنوان المقالة يدلُّ على اعتقاد المستر ستد بتأثير الكتب في الاخلاق. وقد صدَّر المقالة باعلان قال فيهِ ما ملخصهُ:

" أوجّه انظار الذين يهمهم تهذيب الشبان وخصوصاً الشبان الذين يشتغلون الصنائع الى هذه المقالة بوجه خاص ، اذ لا شيء مما يكتب أدعى الى انهاض همم الشبان في هذا العصر من قراءة سير الرجال الذين يقلبون وجه مجلس النواب الانكليزي الآن . فكم مهّدوا من العقبات وكم بذلوا من الصبر والثبات في اجتيازها منتصرين . وما نطلبهُ في هذا السبيل قدر لغيرهم ممن نجهلهُ الآن ان يفعل مثلهُ ... الخ "

وقد أتبع هذا الاعلان بالمقالة المشار اليها فلخّصت منها ما رأيتهُ مناسباً للمقام . قال

" حزب العمّال في مجلس النواب الانكليزي من اهمّ احزاب المجلس الحاضر وقد اظهر اعضاؤهُ بسلوكهم انهم اهل جدّ واقتدار وهمة . فمن هم هؤلاء الرجال وماذا صيّرهم رجالاً وكيف تأتّى للذين لم يتمتعوا بشيء من المزايا الاجتماعية والتهذيبية التي يتمتع بها اهل الطبقتين العليا والوسطى ان يجاروا احسن متخرجي مدارسنا الجامعة . وقد جال في خاطري انهُ اذا استطاع احد منا ان يستعلم من رجال هذا الحزب عن الكتب التي كانت اعظم مساعد لهم في معاركة الايام عاد ذلك بالفائدة على الجمهور عموماً وفئة العمّال خصوصاً اذ لا ريب ان للكتب شأناً عظيماً في تهذيب اخلاق قرائها . ولما كان هذا معتقدي أرسلت الى افراد الحزب المذكور منشوراً قلت فيهِ اني شارع في كتابة مقالة عن الكتب التي ساعدت قراءتها على النهوض من مهاوي الضعة الى مشارف الرفعة . وطلبت منهم ان يوافوني بمجالات في هذا الصدد قائلاً ان تاريخ ما جرى لكم في الماضي يساعد الالوف من الشبان الذين يحذون حذوكم لينجحوا بنجاحكم . وكان عدد الذين ارسلت المنشور اليهم ٥١ رجلاً وهم جملة حزب العمال فجاءتني اجوبة ٤٥ منهم ومعظمها موجز مدقّق "

ثم أورد المستر ستد صور الاجوبة التي جاءتهُ يرمتها فرأينا ان نلخص بعضها مما فيهِ فائدة لنا ونذكر من الكتب ما هو معروف عندنا . قال احدهم

ليسَ في الناس من هو اكثر ديناً للكتب مني . فقد نشأت في هذه الدنيا عاملاً فقيراً وكنت وانا ابن عشر سنوات اعمل تحت الارض في المناجم ١٢ ساعة او اكثر كلّ يوم . ولحسن حظي كان ابواي مولعين بالقراءة ولكن لم يكن في منزلنا سوى كتب قليلة معظمها مجلاّت دينية وكتب لاهوتية اما كتب التاريخ والشعر والروايات فلم يكن عندنا شيء منها . على انهُ كان في مكتبة ابي الصغيرة ثلاثة مجلدات من تأليف تشتنغ منها مجلد يتضمن مقالات عن نبوليون وفلتن وملتون . فواظبت على قراءتها برغبة شديدة وخصوصاً مقالتهُ عن ملتون فاني قرأتها مراراً . وقرأت ما كتبهُ بنيامين فرنكلين عن نفسهِ ثم شرعت في جمع مكتبة

لي ومن جملة الكتب التي اشتريتها وقرأتها بين السادسة عشرة والعشرين من سني تاريخ جبون المؤرخ الانكليزي المشهور في " انحطاط السلطنة الرومانية وسقوطها " (وهو من اشهر التواريخ عند الانكليز) . ومن الشعراء الذين أولعت بقراءة منظوماتهم لونغلو وملتون وشكسبير ووردسورث وتنسون . ومن الساسة وعلماء سياسة الاقتصاد بورك وادم سمث وستورت مل

وقال المستر جون برنس زعيم حزب العمال واحد اعضاء الوزارة الانكليزية الحاضرة وقد ذكرنا ترجمتهُ في جزء يونيو الماضي ان من اول الكتب التي طالعها كتاب فوكنير عن كارلوس الثاني عشر ومنهُ تعلم سرّ احتمال المشقات البدنية والصبر على البرد . وان جون ستورت مل صيرهُ اشتراكيًّا لانهُ لم يحاول نقض حجج الاشتراكيين وان رسكن وكارليل وادم سمث من جملة الكتاب الذين كان لكتبهم تأثير شديد فيهِ . وذكر مجلة المجلات التي ترجمنا هذه المقالة عنها بين المجلات والجرائد التي هو مولع بقراءتها

وقال آخر ان اغاني ابي كان لها اشدُّ التأثير فيَّ ومثلها حكايات جدّتي . ومن الكتب التي طالعتها في صباي رحلات انكتن كوك فادهشني ما علمتهُ منها عن عظم سعة هذه الارض . ثم اخذت في مطالعة كتب كارليل مثل كتاب " اللباس " و" الماضي والحاضر " و" الثورة الفرنسوية " فتعلمت من الاول الشيء الكثير عن سقطات كارليل وهفواتهِ ولكني لا ازال الى الآن من عشاق كتاباتهِ وبنات افكارهِ

وقال آخر من زعماء حزب العمال ان التوراة كانت الكتاب الاول الذي اثر في اخلاقهِ ثم كتاب سياحة السيد في رواية ولترسكوت عن " ايفنهو [1] " فقصة " روبنصن كروزي " وقال ان هذه القصة ولدت في صدرهِ الميل الى تجشم المخاطر والاقدام على الاهوال

وقال غيرهُ من اعظم الحوادث التي جرت لي تمكني من شراء نسخة من هومروس يفتستين من مكتبة قديمة فاخذت اطالعهُ بانعام نظر واسترق الفرص لاتمام قراءتهِ . ويا لهُ من منظر بديع انبسط امام عين خيالي فاني رأيت عالمًا جديدًا يزينهُ الوهم بانواع مبتكراتهِ فسحرت بسحرهِ الحلال ونسيت هذه الحياة الدنيا وما يحفُّ بها من الهموم والمشاغل واقلعت في سفينة الخيال بين الجزر اليونانية اتمتع بمشاهدها الناضرة البهية وأنادم ابطالها وبكلمني آلهتها وإلاهاتها وجهًا لوجه لا من وراء حجاب ولا بواسطة رسول

وقال آخر ان الكتب التي قرأتها كانت على خمسة انواع الاول ما شوقني الى الاسترسال

(١) وقد ترجمت في ادارة المقتطف وطبعت باسم النهامة والصفاب

في المطالعة ومن هذا النوع رواية " ايفنهو " لوتركوت . والثاني ما حملني على الفكر والتأمل وهو كتاب " الماضي والحاضر " لكارليل . والثالث ما جعلني اشتراكيًّا . والرابع ما هاج فيَّ الميل الى ان يكون لي خلق رضيٌّ مثل رواية " ثانتي فير " (سوق الاباطيل) لثكري ورواية " له مزرابل " لڤكتور هوجو . والخامس ما جعلني احترم الطبيعة والانسان وهما على الفطرة

وقال آخر انهُ أولع بمؤلفات جون ستورت مل ومزيني وكارليل ومقالات مكولي . ومن الشعر بمنظومات شكسبير " والفردوس المفقود " لملتن و " إنمموريام " لتنسون . وعدَّ من الروايات " ثانتي فير " و " هنري اسموند " لثكري " وداڤد كبرفيلد " لدكنس . " وادم بيد " لجورج اليوت و " قلب مدلوثيان " وغيرها لسكوت

وذكر آخر مؤلفات سبنسر وداروين واطنب آخر بكتاب " مبادىء الاجتماع " لسبنسر " واصل الانواع " و " تسلسل الانسان " لداروين وبجميع مؤلفات مكولي . وامتدح آخر فلسفة افلاطون وسقراط وخصوصاً فلسفة كارليل . وذكر آخر من الروائيين الاجانب هوجو وڤولا ودوماس وبلزاك . ومن علماء الاقتصاد ادم سمث وكارل ماركس ومارشال

انتهت المقالة بتلخيص كثير . ولو شئنا ايراد اسماء جميع المؤلفين الذين استفاد رجال حزب العمال من قراءة كتبهم واسماء تلك الكتب لضاق بنا المجال فضلاً عن ان تلك الاسماء تكاد تكون نكرات الاَّ عند المتعلمين من الانكليز او عند الذين درسوا لغتهم وتعمقوا فيها من الاجانب عنهم . ولكن استوقف نظرنا ونحن نلخص هذه المقالة اقران الاول سلامة طوية رجال الحزب وصدق لهجتهم وبعدهم عن الدعوى وافتخارهم بفقرهم السابق وضعة اصلهم وعدم استحيائهم من ذكرها . وقد خالفوا بذلك قول الشاعر العربي

يعرف كلٌّ حالهُ فيما مضى الاَّ الذي كان دنيًّا فارتقى

والامر الثاني اكثارهم من ذكر كتاب عنوانهُ " النجاح والثقر " لهنري جورج الاشتراكي واطنابهم فيهِ واجماعهم على اعلاء قدر كارليل ونسبة الفضل في ما بلغوهُ من النفوذ والجاه الى قراءتهم مؤلفاته . وكذلك اكثروا من ذكر رسكن وادم سمث وجون ستوارت مل

قال المستر ستد في ختام هذه المقالة وكان المستر غلادستون يقول ان كتابات ارسطوطاليس والقديس اوغسطينوس ودانتي والاسقف بطلر كان لها اعظم تأثير في نفسهِ . وقال جون رسكن ان كتابات هوراس وبندار ودانتي اثرت فيهِ اعظم تأثير ويليها قصيدة مشهورة لسكوت عنوانها " غادة البحيرة " وترجمة يوب لهومنروس ومنظومات بيرون ومولير وغيرهم . وقسم الكونت تولستوي الكتب التي طالعها الى ثلاثة اقسام بحسب شدة تأثيرها .

فمنها ما كان تأثيرهُ شديداً ومنها ما كان عظيماً ومنها ما كان عظيماً جداً . وذكر تحت الاول الجيل متى وخصوصاً المرعظة على الجبل وكتابين من تأليف روسو اسم الواحد "الاعتراف" والآخر "اميل" ورواية "دافد كيرفيلد" لدكنس . وذكر تحت الثاني مؤلفاً لبركوت اسمهُ "فتح المكسيك" . وذكر تحت الثالث مؤلفاً لروسو اسمهُ "نوفل الويز" وكتاب "نوتردام دي باري" لهوجو وكتابي "فيدود" و"السمبوزيوم" لافلاطون والالياذه والادوسي لهوميروس . ويظهر مما قالهُ تولستوي ان مؤلفات روسو كان لها التأثير الاشد فيهِ وبلغ من تعلقهِ بهِ انهُ كان وهو ابن خمس عشرة سنة يعلق صورة روسو بعنقهِ بدلاً من الذخيرة الدينية وقال اني كنت اعبدهُ

حال المسلمين في العالمين

نقلاً عن مجلة المنار الاسلامي

تصفحنا الجزء الاخير من مجلة المنار فرأينا فيها مقالة موضوعها حال المسلمين في العالمين تستحق ان تكتب بالتبر ولا يليق باحد ان يغفل قراءتها لان كاتبها الفاضل السيد محمد رشيد رضا علم مواقع الضعف واخلص النصح لقومهِ . فرأينا ان نقتطف منها الفقرات التالية عسى ان يطلع عليها مَن لا يطلع على المنار من الذين يُقصَدون بها بالذات قال : —

ان ارقى المسلمين في هذا العصر مسلمو تركيا ومصر والهند فهل تستطيع ان تقول ان احداً منهم ساوى شعباً من شعوب الملل المجاورة لهم ؟

قد انتقد من جسم الدولة العثمانية عدة شعوب نصرانية ما منهم شعب ألا وهو الآن ارقى من مسلمي هذه الدولة تركيا وعربها وكردها — أرقى منهم في الحكومة والمدنية . أرقى منهم في العلوم والفنون . أرقى منهم في الصنائع والاعمال . ارقى منهم في الآداب والاجتماع . ولك ان تستغني عن ذلك كلهِ بان تقول انهم ارقى منهم في جميع شؤون الحياة وان تعجب فاعجب من هذا أن يكون النصارى الذين لا يزالون تحت سلطة هذه الدولة ارقى من مسلميها في جميع شؤون الحياة على انهم اقل منهم عدداً ومالاً وحقوقاً في مناصب الدولة . فماذا تقول اذا قابلت بين مسلمي تركيا ونصارى فرنسا والمانيا وانكلترا وسائر دول اوربا القوية اصحاب مسيطرات على تركيا حتى في كثير من شؤونها الداخلية وقد كنَّ منذ قرنين او ثلاث قرون يرتعدن من مهابتها ويخفن منها

ماذا فعل مسلمو مصر بعد الاشتغال بالتربية والتعليم على الطريقة الاوربية قرناً كاملاً .